



بنية المقدس ووظيفته من منظور أخلاقي مارسيل موس - أمودجا -

The structured and function of the sacred from an ethical perspective marcel mauss - model -

أ. صباح بوكولة¹، أ. محمد بن سباع²

¹ جامعة عبد الحميد مهري، قسنطينة. الجزائر، sabahboukeloua@gmail.com

² جامعة عبد الحميد مهري، قسنطينة. الجزائر، Bensebaamohamed@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/08/10 تاريخ القبول: 2021/09/23 تاريخ النشر: 2021/09/30

Summary

This study seeks to introduce the sacred from a general point of view and the perspective of a french philosopher and sociologist Marcel Mauss. Marcel Mauss tried to reveal the structure and function of the sacred in society from within the anthropological field, and he used a number of religious rituals such as magic, prayer and sacrifice to reveal that the sacred is no long a transcendent and idealist, but rather a social act and practice, that is, it is linked to the social dimension. The new conception of the sacred has led to consider it a mere ethical practice that it called the term human rock, relying on sociological tools that were influenced by the tools of the natural scientific to scientific study.

Keywords: Sacred, Marcel Mauss, Social Phenomenon, Sacrifice, Human Rock.

الملخص

تسعى هذه الدراسة إلى التعريف بالمقدس بوجهة نظر عامة ومن منظور الفيلسوف الفرنسي وعالم الاجتماع مارسيل موس خاصة. حاول موس الكشف عن بنية المقدس ووظيفته في المجتمع من داخل الحقل الأنثروبولوجي وقد استعان في ذلك بجملة من الطقوس الدينية كالسحر والصلاة والتضحية ليكشف من خلالها أنّ المقدس لم يعد شيء طهراني متعالٍ وإنما هو فعل وممارسة اجتماعية، أي أنها مرتبطة بالبعد الاجتماعي. لقد قاد هذا الفهم الجديد للمقدس إلى اعتباره مجرد ممارسة أخلاقية أطلق عليها مصطلح الصخرة البشرية معتمدا في ذلك على الأدوات السوسولوجية تأثرت بأدوات العلوم الطبيعية حتى تكون الدراسة علمية.

الكلمات المفتاحية: المقدس، مارسيل موس، الظاهرة الاجتماعية، التضحية، الصخرة البشرية.

* أ. صباح بوكولة، الإيميل: sabahboukeloua@gmail.com



مقدمة:

ارتبطت الفلسفة منذ بداياتها بالميتولوجيا التي تجلّت في شكل حكم وديانات لدى الشعوب، وقد تولّد عن هذا الارتباط وعي وفكر فلسفي عميق. إنّ هذا الترابط بين الفلسفة والميتولوجيا نتجت عنه علاقة قويّة بين الحكمة والشريعة، ومع ظهور أول آلة صناعيّة تشكّل وعي جديد للحضارات الإنسانيّة يدعو إلى ضرورة تجاوز العلم للدين وكل ما يتعلق بالمثاليّة والميتافيزيقا المفرطة، وقد كانت هذه القضية من المواضيع التي اشتغل عليها فلاسفة ومفكري القرن التاسع عشر، حيث نادوا بسلطة العلم على الدين، وهو ما جعله مرةً أخرى موضوعاً للبحث الفلسفي لدى كبار الفلاسفة والمفكرين، ويمكن أنّ نخص بالذكر هنا الفيلسوف والمتخصّص في أنثروبولوجيا الأديان وأستاذ تاريخ الأديان وأعراقها مارسيل موس. الذي جسّد ذلك من خلال دراسته الابستيمولوجية التي وسّعت من حقل الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع فأفاض في تحليل المقدّس والدين، كما ساهم بشكل كبير في الكشف عن البنية التي تحكم المقدّس، فكان بذلك خير أمودج يدرس ويبحث العلاقة، وبناءً على ذلك فقد اخترنا أنّ نجعله موضوع دراستنا، خاصة وأنّ فكرة المقدّس قد تجلّت معالمها في العديد من الأعمال والأبحاث التي سعت إلى بلورت الرّهانات الابستيمولوجية والقضايا العلميّة وتحديد دورها في تشكّل حقل المقدّس، فهي تشكّل مثلث لقضيّة الفلسفة والدين والأخلاق، والكشف عن بنية المقدّس والحقيقة الكامنة خلفه عامة، وحتى تكون لنا رؤية أنثروبولوجيّة لقضيّة المقدّس وأبعاده عند مارسيل موس خاصة، ولأنّه أصبح يشكّل موضوعاً مهمّاً في الفترة الرّهانة حيث أنّ التحدّيات التي يعيشها العالم اليوم تكشف عن مدى أهميّة إعادة البحث حول مثل هذه القضايا خاصةً وموجة العولمة والتكنولوجيا التي تفعل هذه



المشكلات أكثر، والتي ناقشها مارسيل موس وأفاض في تحليلها، نحاول الاجابة عن السؤال التالي: ما مفهوم المقدس عند مارسيل موس؟ ثم ما هي بنية المقدس وتركيبته؟ وما هي وظائف المقدس وأين تجلياتها؟

1. مقارنة مفهوميّة للمقدس:

1.1: لغة:

المقدس هي كلمة متعدّدة المعاني لذلك وجب علينا ذكر جملة المعاني التي يحملها المقدس والتي تعني في الموروث العربي أنه "ممارسة تقديسيه تقوم على التبريك والتقدّيس." (ابن منظور، 1999، ص:51) ما يعني أنّ المقدس - قدس - يحيل في معناه اللغوي إلى المباركة والتبجيل، وهو الذي يحيل أيضا إلى "الجليل المحترم المهيب أي شيء حرام حرمة، وبالتالي المقدس هو القابل للتكريس والتقدّيس." (سهيل، 2005، ص:1087) فنجد أنّ المقدس يوحي إلى الإجلال والاحترام وإلى كل أنواع الرهبة التي يتمييز بها المقدس فتارةً يعني الشيء المحرم الذي لا يجوز انتهاكه وتارةً يعني المباركة والإجلال.

أما في الموروث الأجنبي فالمقدس في اللغة الفرنسية *Sacre* وفي اللغة الإنجليزية يقابله *Sacred* وهي ألفاظ ترجع إلى الكلمة اللاتينية *Sacer* أما في اللغة اليونانية فتشير إلى الكلمة *Saka* وهو يحيل إلى معنى "الأشياء السرمديّة التي تحيل إلى العجز والتعجيز، وبكل ما يتصل بالديني، والإلهي أو ما يدين بالاحترام المطلق الذي يفرض نفسه بقيم عالية السمو وقوانين مقدّسة." (Illustre, 1995, p:909) لنجد أنّ المقدس يرتبط بكل ما هو إلهي متعالٍ سرمدٍ.



2.1: اصطلاحا:

إنّ المقدّس من الناحية الاصطلاحية عبارة عن كلام مقدّس فهو "خطاب رمزي ذو طبيعة مقدّسة مأخوذة عن الزمن الغير عادي، والدّي يكون معاش لكن يجب أنّ يكون معاش دون توقف وذلك من خلال الشّعائر والطّقوس." (العمرائي، 2015، ص:3) ليغدو المقدّس كمفهوم يرتبط بزمن الإنسان، كون أنّ هذا الزمن يعاش من خلال الطّقوس والشّعائر الدّي يقوم بها الإنسان في ذلك الزمن وهي تحيل بشكل من الأشكال على الزمن بالمفهوم البرغسوني Henri Bergson (1859 - 1941) كما أنّ "المقدّس هو كل احترام دّيني من قبل جماعة، أو بمعنى أخلاقي كالتّابع المقدّس لشخص ما، أو أنّها تنتمي إلى قيمة مطلقة أو ترتبط بالتّقدم، أم أنّ الموضوعات ترقى إلى موضوع آخر من قبيل الموسيقى." (لالاند، 2000، ص:908) ليصل المقدّس في ماهيّته إلى الدّين والأشخاص والأشياء لجامدة التي تحاط من قبل الإنسان بكل أنواع التّحريم والاحترام والتّناء والصفاء أي أمور يطبقها الفرد والمجتمع أما في الموروث الإنجليزي فهو "يحيل إلى عكسه parfum أيّ دنس، أو مقدس أو غير دّيني، ليصبح المقدّس بمعنى الدّناسة والرّجاسة ويدخل في سياق المحرّمات." (شاكر، 1981، ص:906)

إنّ المقدّس في المفهوم الاصطلاحى يُشير إلى مجالات عديدة، ويحمل دلالات متنوّعة تحيل إلى الجانب الدّيني، لأخلاق، والفنّي، والاجتماعي، وحتى الاقتصادي وغيرها من المجالات، وإذا كان المفهوم الاصطلاحى العام للمقدّس يسير في هذا الاتجاه أو ينحصر في هذا المفهوم، فإنّه عند مارسييل موس يحمل مفهوماً آخر يختلف عن المفاهيم السّابقة.



2. مفهوم المقدس وطبيعته النبوية عند مارسييل موس

لقد تناول مارسييل موس المقدس بشكل مختلف عن الآخرين، ويتضح هذا في مقالته: "التضحية طبيعتها ووظيفتها" حيث طرح من خلالها سؤال عن ماهية المقدس ومفهومه وطبيعته النبوية، والتي سعى للإجابة عنها بطريقة تختلف عن غيره من المفكرين، مثل رودولف أوتو (Otto Rudolf 1869 - 1937) الذي عرفه بقوله: «المقدس ذو بنية ومفهوم ناتج عن مشاعر عميقة ودفينة للفرد بعناصر غير عقلانية متعلقة بتوضيح القدسي الذي يحيلنا هو الآخر إلى شيء ما أعمق جداً من العقل الصرّف فيكون قلة من الأشخاص قادرين عن إدراكه وفهمه أي هم الأشخاص القادرين عن إدراكها السفلى أو حضيض النفوس فيخرج المقدس من أعمق أساسيات الإدراك المعرفي.» (أوتو، 2010، ص: 141، 142) ليعرف بينة المقدس وتركيبته على أنه نابع من الوجدان الفردي اللاوعي للفرد، وبالتالي يرفض أوتو التفسير العقلانية للظاهرة الدينية. أما الفيلسوف روجيه كايوا (Roger Caillois 1913-1978) فقد كان عكسه تماماً حيث أفرط في القول بعقلانية بنية المقدس الذي فسره على أنه يتنازع بين صورتين هما: "العالم المقدس والعالم المدنس، وكيف يكون واقع الفصل بين عالم النشاط الحرّ الذي لا يوجب أيّ إحباط ولا يتعدى تأثيره المستوى السطحي من الكيان والعالم المحفوف بالمخاطر." (كايوا، 2010، ص: 36) لنجد بعد ذلك مارسييل موس يختلف في تعريفه للمقدس مع ردولف أوتو وروجيه كايوا واللذان أرجعا المقدس كل منهما إلى الفرد، في حين نسبها مارسييل موس إلى الجماعة. ومن جهة أخرى نجده يقف موقف وسط بين لاعقلانية أوتو المفرطة وعقلانية كايوا المفرطة فيتفق مع كايوا في أنّ "المقدس كل ما يتعارض مع الدنيوي." (Mauss, 1899 p:11) ويكون بذلك



عقلانيّ وروحاني مفارق للطبيعة ويتفق مع أوتو في أنّ تلك المشاعر تكون جماعية لاشعوريّة.

لينطلق مارسيل موس تحديده لمفهوم المقدّس إلى البحث عن الآليّة الابستيمولوجية التي ساعدت على تفكيك بنية المقدس وهو الذي سعى إلى تحليله قصد استخراج الطّبيعة الرّمزية الكامنة فيه وإعادة تركيبه فكان طقس التّضحية هي الآليّة التي اعتمد عليها واعتبرها مهمّة لتفكيك بنية المقدّس قصد تحديد طبيعتها وتركيبها البنيويّة فعرفها مارسيل موس: «على أنّها تقوم على معنى التّكريس، أيّ أنّ مفهوم المقدّس والتّضحية يندمجان وينصهران في بوتقة واحدة.» (Mauss, 1899, p:7) لتكون التّضحية ذات أبعاد تقديسيه تربط بين العالمين المقدّس والمدنّس، وقد اعتمد في ذلك على أعمال علماء الإنجليز الذين هم من رواد المدرسة البنيائيّة الوظيفيّة من بينهم وليام روبرتسون سميث William Robertson Smith (1846-1894) حيث نجد أنّ سميث درس مجموعة من الحضارات القديمة وتوصّل إلى دراسات وصفية فقط. أمّا مارسيل موس فقد انتقد طريقة الوصف وتحليل الحضارات لأنّها لا تركز على البنية والتركيبية المشكّلة للمقدّس ودورها في حياة الجماعة فتوجّه إلى حضارتين مختلفتين تماماً من حيث المعتقد والدين وهما الحضارة اليهوديّة التي تقوم على فكرة التوحيد والحضارة الهنديّة التي تقوم على وحدة الوجود، والتي سعى من خلالها استخلاص الأبعاد البنيويّة للمقدّس ابستيمولوجيا، فتوصّل إلى أنّ المقدّس يقوم على بنية رمزيّة إذا ما بحث الباحث والمفكّر فيها وجدها نابعة من روح المجتمع أيّ الجماعة وقد عبّر عن ذلك في معظم كتبه التي طرحها حيث يقول: «التّضحية تبقى في صميمها وروحها اجتماعية.» (Mauss, 1899, p:10) ليتّضح من ذلك أنّ بنية



المقدس وتشكيلته وتركيبته نابعة من وعي الجماعة والمجتمع وليس الأفراد ويؤكد أيضاً في نهاية المطاف أنّ المقدس حقيقة اجتماعية وبالتالي فإنّ مختلف الوظائف التي نسبها للمقدس هي من الكيان الاجتماعي ما يجعلنا هذا إلى طرح التساؤلات التالية: ما هي الوظائف التي يؤل بها المقدس؟ وهل هي متعدّدة أم وظيفة واحدة؟ ثمّ ما هي المنابع الأساسيّة لهته الوظائف هل للفرد أم للمجتمع؟ وإذا كانت اجتماعية فكيف يمكن مقاربتها أنثروبولوجياً؟

3. وظائف المقدس وأبعاده:

لقد اعتبر مارسيل موس المقدس وظيفة اجتماعية في صميمها وتركيبتها، وهذا ما يؤدي إلى اعتبار أنّ المقدس كحاجة اجتماعية فهو يقوم بعدد من الوظائف والتي كشف عنها مارسيل من خلال قطبين أساسيين يُظهران بشكل جليّ شيئين مهمين هما أولاً: أنّ المقدس ضرورة اجتماعية والثانية: أنّه يؤديّ وظائف اجتماعية متعدّدة.

1.3: الصلّاة كوظيفة اجتماعية:

لقد كانت الصلّاة موضوعاً من المواضيع الأساسيّة في الأنثروبولوجيا عامة وفي فكر مارسيل موس خاصة، الذي ركّز على تأسيس مفهوم خاص به، فأحدث بذلك تغييراً مهماً سواء على مستوى علماء اللّغة أو تاريخ الأديان، ولتحليل هذا الموضوع سنحاول تتبع دراسة مارسيل موس، استناداً المنهجية في تقديمه لتعريف أوّلي للصلّاة بأنّها "فعل ينطوي على جهد، أيّ بذل مجهود من طرف طاقة جسديّة ومعنويّة في سبيل إحداث مفاهيم معيّنة (...). كما أنّها فعل تقليدي، بوصفها جزءاً من الطّقوس (...). كما أنّها فعاليّة كامنة فيها (...). لأنّها تحثّ الإله في التّدخل في اتجاه معيّن، وأخيراً فإنّ فعل الصلّاة وفعاليتها هي نفس الفعاليّة والطّقوس الدنيّة، لأنّها توجّه إلى قوى



ديّة". (سالم الحاج، 2016، ص: 72) وهذا التعريف هو الأمر الذي جعل مارسيل يختلف مع علماء اللّغة السابقين، كونهم اعتمدوا في تحليلهم على المعنى دون إدراك فعالية الصّلاة ووظيفتها كتجليّ حقيقي لإحدى الظواهر الاجتماعية، كما أنّ الصّلاة تجمع الطّقس والأسطورة فهما يتواجدان معا كون أنّ اللّغة "وسيلة للتعبير عن مشاعر الإنسان اتجاه المعبود، وبالتالي الصّلاة خطاب لغوي بامتياز". (حمداوي، 2017، ص: 105، 106) كما أنّ الصّلاة مليئة بالمعنى لكونها عبارة عن أسطورة مليئة بالقوة والفعالية بوصفها طقس، فمزج بين المعنى والفعل وسعى من خلال اللّغة الموجودة في الصّلاة أثناء أدائها وممارستها إلى البحث في ذلك الشّعور الجمعي الذي تخلفه المشاعر الدنيّة من أجل الكشف عن المعنى والوظيفة التي تؤدّيها، ويبيّن أنّ الصّلاة تتخذ الطّابع الاجتماعي مثل ما ذهب إلى ذلك إميل دوركايم Emil Durkheim (1858-1917) ومن ثمّ تتخذ الصّلاة بعدا اجتماعي من خلال مضامينها وأشكالها ما يعني أنّ "الصّلاة تقليد جماعي مجتمعي يحقّق التضامن والاستقرار والتوازن، وعليه الصّلاة عند مارسيل موس ظاهرة اجتماعية وجماعية، وهي نتاج العلاقات المجتمعية المعقّدة والمركّبة". (حمداوي، 2017، ص: 107) ليصل في نهاية دراسته حول الصّلاة أنّها مرتبطة بأشياء مقدّسة هي نفسها المشاعر الدنيّة الجماعية التي تتولّد نتيجة الاجتماع المشترك، فتكون الصّلاة ظاهرة اجتماعية ذات مطلب تاريخي يؤكّد فيه موس دراستها كنسق موجود وظاهرة كلية رغم العمق الذي يحوي هذه الظاهرة ويتعدّد فيها، إلا أنّ هذا لا ينبغي أن يكون مبرراً لتجزئتها.



3. 2 السحر كوظيفة اجتماعية:

قدّم مارسييل موس دراسة حول السحر تحت عنوان "مقالة في التّظريّة العامّة للسّحر"، والتي "حملت رتبتين هما رؤية السّحر على أنّ المقدّس في قلب المعتقدات والممارسات السّحرية التي لا يُفصل بينهما، والثّانية كونها ظاهرة اجتماعية." (الوكيلي، 2016، ص: 85) فعزل بذلك العنصر الذي يفرّق ويربط الظّاهرة الاجتماعية الكليّة بين الأفراد والمقولات والأفراد والأشياء كما رأى موس، أنّ المشاركة ليست غامضة كما يعتقد البعض في السّحر بل هي مجهود في المزج ومجهود في إقامة النّسابة. فالسّحر منذ فترة طويلة موضوع مضاربة فقد كان محل دراسة وبحث منذ القديم حيث ناقش هذه الإشكالية فلاسفة قدماء، لكن ما تشهده هذه الإشكالية كونها طرحت حوله مجموعة من التّظريات أغلبها يدعو إلى التوحيد في هذا الخصوص الاتفاق حيالها في أغلب المرات، فقد قدّم لنا إدوارد برينت تايلور Edward Burnet Tylor (1832-1917) تفسير للسّحر من منظوره الرّوحاني والتي عرفت فيما بعد بالنّظرية الإرواحيّة، وبالمثل قدّم كل من ويلكز وسيدني هارتلاندا نظريّة أخرى في السّحر والتي ترى أنّ (السّحر) روحاني شاماني أما تايلور فقد رأى أنّها تعهد بالحياة، ممّا يبيّن تماسك في هذه النّظريات، خاصة بما ساهم به جيمس جورج فريزر James George Frazer (185 - 1941) هو الآخر. " (Mauss, 1903, p:16) كما يظهر حالياً أنّ السّحر عند هؤلاء يقوم على نقطتين رئيسيتين هما كون السّحر يشمل العالم وهو موجود قبل العلم. فإذا تتبعنا تصنيف فريزر نجده يبدأ بالسّحر ثمّ الدّين ثمّ العلم حيث يعتبر السّحر هو العلم الأول للبشريّة.



لقد رفض مارسيل موس مثل هذه الأفكار وانتقدها حيث بيّن أن العديد من الممارسات والطقوس السحرية تمتلك روحاً تتصوّف بها كما تريد، لكنه لا ينكر من جهة أخرى أنّ هذه المفاهيم شائعة بين أوساط المجتمع، لكن القول أنّ الدين يعود إلى الجماعة، والسحر يعود إلى الفرد حسب دوركايم، فقد تعامل موس على خلاف ذلك حيث نظر "للسحر على أنّها ظاهرة من نوع مختلف عن التضحية، كون التضحية تعد نوع من العادات الجماعية التي يمكن تسميتها ووصفها وتحليلها دون خوف أبداً من فقدان الشعور بأنّها حقيقة واقعية وشكلاً ووظيفة متميّز. "(بدوي، 1963، ص:152) لذلك نجد يفرّق بين طقوس السحر والدين وتجاربه، "فالسحر عنده يقارب المعتقدات القيمة، وأنّ ما يميّز السحر عن الدين هو مفهوم التحريم الذي يضع حداً فاصلاً بين السحر والدين فالدين يتعلّق بالشر. "(Mauss , 1903, p:5) حاول مارسيل موس الكشف عن السحر باعتباره وظيفة اجتماعية "جماهيرية" على حد تعبيره فوجد أنّه رغم أنّها تؤدي على يد أفراد إلا أنّ لها أبعاد ووظائف اجتماعية، "فالسحر ليس نظاماً، إلّا في درجة ضعيفة، إنّها نوع من الجماع والأفعال والمعتقدات التي تعد سيّمة التنظيم حتّى بالنسبة لمن يمارسها ويعتقد بها، إلّا أنّها تضمن نفس العناصر الجوهرية وهي واحدة في كل مكان. "(بدوي، 1963، ص:5) فهما تغيّرت الروابط فإنّها تظل مثل الظواهر الاجتماعية ولها قرابة مع العلم والصناعات من ناحية، ومن ناحية أخرى مع الدين، فبينما ينحو الدين منحى الميتافيزيقا ويستغرق في إبداع صور المثالية، فإنّ السحر ينبثق من فروع كثيرة كالعلم، الاتجاه الذي تعمل فيه صناعاتنا النفسية والطب والكيمياء، والحياة الصوفية مثلاً التي تمنح منها قواه ابتغاء أنّ تختلط بالحياة الدنيوية وتخدمها، وبالتالي فالسحر ينحى منحى كل ما هو عيني، بينما



الدين ينحى منحى ما هو مجرد. لنخلص أنّ موقف دوركايم لا يختلف كثيراً عن موقف موس ما يعني حتى هذا الحد أنّه لا فرق بين الرؤيتين، فدوركايم لم يذكر اختلاف جوهرى بين السحر والدين وكان يفضل الحقائق النظرية، وذهب إلى أنّ الطقوس السحرية الدينية تؤدي من قبل شخصيات مختلفة من تفاعلات عديدة، لكن غالباً ما تقوم على المفاهيم نفسها لنجد في الأخير أنّ موس اعتمد على تعريف دوركايم للسحر على أنّه "فعل لا كنسي" وأنّ السحر نشاط خاص بينما الدين استثنائيّ، فوجد موس يستخدم في أغلب كتاباته مصطلح السحر الديني ويعرّف السحر على أنّه "مرتبط بالطّقس ما يدل على أنّ الطّقس يدل في الهند على "الكامن" أيّ العقل وفي اللغات الأخرى فيعني جذر الطّقس "القيام به" وبالتالي السحر ممارسة." (Mauss, 1903, p:6) من أجل علاج مريض أو دفع مضرّة أو جلب منفعة، ليؤكد موس أنّ السحر ليس من اختصاص أفراد معينين وإنما هو ممارسة يقوم بها الجميع ما يُظهر أنّ السحر كوظيفة اجتماعية يناط بها المجتمع فلم يعد المقدّس بمفهومه العام مقدّساً طاهراً و متعالياً، وإنما أصبح وظيفة اجتماعية تساهم في تدابير الحياة الاجتماعية. إنّ السحر حسب موس يقوم بثلاث مكوّنات أساسية هي الوكلاء والأفعال والمثيلات، فيغدوا الوكيل المنوط بالقيام بالعملية السحرية، أما الجماهير من الناس فتخلع على السحر صفة الممارسة الفردية إلى الممارسة الجماعية أمّا الأفعال فهي بفعل التكرار والتقليد تصبح جماعية، أمّا التمثيليات فهي أفكار ومعتقدات تتعلق بالأفعال السحرية المذكورة سابقاً وهي تقوم على ثلاث أمور هي الصيغة التعاطفية، وتعني الانخراط القوي ووجود فكرة محيط سحريّ أمّا الثانية فهي مفهوم الخاصية وهي ترتبط بجوانب كثيرة بالسحر والطّقس فهي تعني مثلاً "مرور إبراهيم عليه السلام على أرض الكنعانيين فيغدوا الزّمان



والمكان مقدساً." (موس، 2020، ص: 85) ومقولة خاصة لضرورة السحر أيّ مقولة تفسير الأسطورة، وأخيراً "نظرية الشياطين وهي تستدعي حضور الأرواح كشخصية ولو بدرجة من درجات الممكنة." (الوكيلي، 2016، ص: 87)

هكذا نجد أنّ السحر يلعب دوراً ووظيفة اجتماعية أكثر منها فردية، وهذا ما يتضح عندما درس مفهوم السحر من خلال مفهوم "المانا" ذلك المفهوم التي اعتبره شبيه لمفهوم المقدس، حيث أنّ "المانا" ليس مثل مقولة الزمان والمكان بل قوة روحية غيبية موجود في القبائل القديمة وكذلك القبائل الموجودة حالياً والتي كان يُفسّر بها الظواهر الخارقة لتكون بذلك موجود في الخيال الجمعي، ما يعني أنّ السحر هو آخر وظيفة تتجلى في المجتمع الذي يقوم بتأديتها ويفسّر على هذا الأساس أنّ السحر حامل لمفهوم المانا الذي يتعدّد معناه، "إنّها بشكل مختصر مقولة في التفكير الجماعي." (بدوي، 1963، ص: 152) وهكذا يظهر السحر بما يؤدي إلى صعوبة الفصل بين السحر والدين، "فالسحر هو مجموعة من الصفات والأسرار وعادة ما تكون أكثر فردية من الدين وهو يرتبط من جهة أخرى بمفهوم هام هو مفهوم التماثل والعقيدة، لكن نادراً ما يستخدم الساحر الأشياء المقدسة بشكل صحيح ما يعني أنّ استخدامها لغرض السحر، فهي تعني تدنيس المقدسات." (بدوي، 1963، ص: 152) وبذلك فهو يرتبط بالعلوم كما يرتبط بالصناعات، إنّه ليس مجرد فنّ عملي بل هو أيضاً كنز من الأفكار ويعطي أهمية قصوى لمعرفة ميادينه ومن أبرز هذه الميادين فالعلم حسب موس يحوي قوة كبيرة، لكن بينما يتجه الدين بعناصر عقلية ناحية الميتافيزيقا، فإنّ السحر مولع بما هو عيني يتعلّق بمعرفة الطبيعة إنّه نوع من السجلات الأولى للعلوم الفلكية والفيزيائية طبيعياً، وقد حاول علماء السحر أحياناً تنظيم معارفهم



ووضع مبادئ يتخذ السّحر فيها مظهر العلم الحقيقي فموس يعتبر "أنّ شطرا من العلوم قد وضعه السّحرة خصوصاً الجماعات البدائية والسّحرة الصنعيّون والسّحرة المنجمون والسّحرة الأطباء الذين كانوا في اليونان والهند وغيرها من بلاد مؤسسي علم الفلك والفيزياء والكيمياء والتاريخ الطبيعي." (بدوي، 1963، ص: 152) إنّ ربط السّحر بالعلم يحيل إلى أنّ المقدّس لم يعد متعالياً خارج عن نطاق وطبيعة المجتمع و الأفراد إنّما هو يملك العديد من الوظائف، وهذه الوظائف تمارس هي الأخرى من قبل المجتمع، فليس العلم شيئاً مفارقاً للطبيعة، وإنّما هو أحد التطورات التي شهدتها المجتمع كون أنّ موس "يؤكد أنّ السّحر أنجب العلم فالطبيب هو ابن السّاحر. كما يظهر أنّ كل تقدم علمي إنّما هو خطيئة تفسيريها الشياطين. حيث يستمد السّاحر المانا من عالم قويّ فوق الطّبيعي من عالم المانا نفسه لكن تلك الأرواح والقدرات لا وجود لها خارج التوافق الاجتماعي وخارج الرأى العام للعشيرة." (كليمون، 1995، ص: 30) لنقول أنّ السّحر أحد الوظائف الاجتماعية التي تكمن في المقدّس.

4. اختزالية المقدّس داخل أفهوم المانا:

إنّ المقدّس حسب مارسيل موس يعد غطاء ينطوي تحت جملة من المظاهر الاجتماعية، ويظهر ذلك من خلال النصوص المحلّلة سابقاً في السّحر، والصلاة، والتضحية كأهم بنيات ووظائف دينية لعبت دوراً بارزاً في الخيال الاجتماعي، إلا أنّ هذه المظاهر الدّينية تمر عبر جملة من الطّقوس والرّموز والأساطير، ويتّضح ذلك انطلاقاً من أنّ هذه المظاهر والظواهر لم تعد شيئاً طهرانية مثالية مفارقاً وهذا ما يظهر بشكل جلي من خلال مقولة مارسيل موس عن المقدّس وبجته عن الوقائع التي يتأسس عليها الدّين. "فليس السّحر سالف تبسيطي للدّين كما هو عند فريزر إنّما هو على العكس



جزء لا يتجزأ من الدين بهذا يوضح أنّ المانا قاسم مشترك بين الدين والسحر ويُفسّر انطلاقا من المانا، فالمانا لفظ مالينيبي: "تتقاطع فيه الأوريندا لذي شعوب الإيروكوا والمالينوا لدى شعوب الألفو كانوال والكان لدى قبائل السيو والشويّ والتّاو لدى شعوب الكواكتيل، حتّى البراهما في الهند الفيديّة." (غوشي، 2015، ص: 17) هكذا تظهر المانا على أنّها "اكلة مشتركة بين كل اللّغات الماليزيّة وكذلك اللّغات البولينيزيّة، إنّ المانا بكل بساطة ليست مجرد حالة في فعل وصفة وحالة." (الوكيلي، 2016، ص: 87) فهو يحمل مفاهيم متشابهة، وعدد من الثقافات والمجتمعات ويعطي أمثلة عديدة عند المجتمعات المتعدّدة فيكون في الأشياء أو الأماكن واللّحظات والحيوانات والأرواح والأشخاص والسحر وكلّهم يعبر عن قوة العقل هكذا يصبح المقدّس جنس والمانا نوعه: "ويرمز إلى تملك المانا أو إعطاء المانا إجمالا هذه الكلمة التي تعطي إلى السلطة السّحرة الصفة السّحرية للشئ السحري." (Mauss, 1903, p:94) إنّ مفهوم المانا يؤدي إلى اختزال المقدّس من وجهة نظر موس فيغدو المانا قوة روحية غيبية تمتلك أشياء بكل أنواعها وصفاتها فتكون رمز ثاوي خلف هذه الظاهرة المتعدّدة. ولعلّ الهبة هي أحد الأعمال الموسية توضح لنا بجلاء هذه الفكرة عندما يقول المانا روح تحتاج إلى العودة إلى موطنها الأصلي، "حيث أنّ الشرف والهبة في "المانا" التي تمنح الثروة التي من الالتزام المطلق يجعل هذه الهدايا على ألم لفقدان هذه المانا السلطة." (بدوي، 1963، ص: 152) هكذا نجد أنّ المانا رمز يأوي خلفه جميع مظاهر المجتمع وعلاقاته الاجتماعية ومجالاته، فهي بمثابة الروح أو الأرواح التي تسكن هذه الأشياء المختلفة وبالتالي تحفظه وتحميه، فعندما قال أنّ السحر جزء من الدين والسحر يفسّر عن طريق المانا وهي قوة غير مرئية وأصبح رمزاً فأصبح المقدّس يذكر في



المانا، أيّ أصبح المقدّس رمزيّ، إنّ كل هذا يبيّن لنا كيف أنّ مفهوم المقدّس ومفهوم الظاهرة الاجتماعية غير واضحة في ظاهرة السّحر إلّا أنّ هذا لا يعني أنّها غير موجودة أو غائبة وإثماً: "تحويلنا إلى اعتبار المتخيّل الاجتماعي حاضراً في وعي الفرد وليس غائباً عنه." (Mauss, 1903, p:90)

5. الأسس الأخلاقيّة في الاقتصاد:

قدّم مارسييل موس مفهوماً للهبّة يختلف عن المفاهيم السابقة حيث يوظّفه ديفيد هيوم في كتابه "الطبيعة البشريّة" بمفهوم نقل الملكية، أمّا توماس هوبز Thomas Hobbes (1588 - 1679) قد وظّفه بمعنى اللّغة القانونيّة أو التقليد الذي يحكم سير المجتمعات أمّا مارسييل موس فقد وظّفه على شيئين الأول "هو العلم خاصّة دراسته للجانب العلميّ لغة والواقع الذي يختص هنا بدراسة المجتمع وبما أنّ المجتمع هو الموضوع الذي يشتغل عليه مارسييل موس فقد اعتمد عليه، عندما توجّه لدراسة الهبة أيّ مفهوم العطاء المرسوم تحت مجال الاقتصاد، والذي يتميّز بكونه يخفي أغراض دينيّة وأبعاداً روحيّة أخلاقيّة، فاعتمد مارسييل موس على "فنّ الفهم من داخل المحتوى العلميّ الذي يسمح بكشف البنية المنطقيّة والمفاهيميّة." (بن موسى، 2016، ص:69) يبدأ مارسييل موس بالتأكيد على أنّ الحقائق الاجتماعية التي أصبحت كليّة ترمز إلى أمر رمزيّ، هذه الرمزيات تكشف عن نفسها من خلال المعاملات الاقتصادية التي كانت تمارس في المجتمعات البدائيّة خاصّة في نقطة الالتزام بالعطاء، عندما يكون الفرد ملزماً برّد الهدية فهو يوحيّ إلى رمزيّة المقدّس أيّ الروح الذي يوحي إلى ذلك الشيء الموهوب أيّ المانا الذي يفرض الرّجوع إلى مكانه الأصليّ، ما يعني أنّ الممارسات والحقائق الدّينية هي من ترتيب الواقع الرمزيّ.



يوظف مارسيل موس مصطلحاً أو مفهوماً يُعد ركيزة الأبحاث التي قام بها وهو: " مفهوم الصخرة البشرية، والتي تعني أنّ نوات المجتمع في الأصل تقوم على التماسك والتوحيد وليس في الانفصال والتفريق. " (Ledent, 2004, p:20) هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهو يؤكد على أنه لا فجوة بين الفرد والمجتمع، وإنما هناك علاقة ترابط بين الفرد والمجتمع، وبالتالي فموس " يتخلى عن جدلية الحضور والغياب بين المقدس والمدنس الذي أقرّه عمّه دوركايم ويقول بالأخلاق في الاقتصاد. " (Caille, 2018 p:46) فتتعمق صلة المقدس بمظاهر الحياة، في الاقتصاد حتى يعمّمها ككل. من جهة أخرى تعمل على العمل والأشياء إنّه بالعودة إلى الدراسات السابقة التي اعتمد عليها مارسيل موس خاصة القبيلة البوتلاتشيّة وهي عبارة عن أنظمة روتينيّة للخدمات الدنيوية والقانونيّة، فالّتضامن هو تبادل المنفعة الحاليّة سواء الفرديّة أو الجماعيّة، وهو بذلك يُسلط الطابع الرّوحي لنظام التبادل هذا، لأنّهم يتمتّعون بالهاو أمّا الالتزامات الثلاثيّة (العطاء، الأخذ، الرّد) هي مؤسسات فهي تقوم على فكرة أنّ دائرة الثروة تتبع حصريا علاقات ليست اقتصادية فقط بل هي دينية وقانونيّة أيضاً، وبالتالي فكل شيء. يجب أنّ يكون متشابكاً ما يعني أنّ الحياة البدائيّة حسب موس أكثر تعقيداً وأكثر نشاطاً وتحركاً أيضاً، فالحياة الاقتصادية متجذرة فيها بعمق في الأخلاق والتدين فكل شيء موجود في كل شيء لذلك فقد رفض الجوانب النفعيّة في المعاملات الاقتصادية وهي إشارة منه إلى أعلام المدرسة النفعيّة أمثال هربرت سبنسر والبراغماتي وليام جيمس William James (1842 - 1910) التي قدّمت نظريات اقتصادية يتخلّلها المنفعة الفرديّة. " إنّ مفهوم الصخرة البشريّة التي بنيت عليها المجتمعات القديمة المصبوغة بحقائق معقدة، لكنّها إيجابيّة، فمفاهيم من قبيل اللّغة



والتقاليد والقيم من المفاهيم التي تتطلب المعاملة بالمثل. (Caille, 2018, p:46) لذلك يدعو إلى تلك المبادئ عن طريق حفلات الرّفاف الذي يعمل فيها على تصريف أمواله بحرق منازل وممتلكاته حتى ينال الاحترام والتقدير، فكما نرى فكل شيء ليس مجرد علاقته بالسوق وليس كل شيء هو حساب نفعيّ فهناك نفقات صافية وغير عقلانية، فبالنسبة لموس فإنّ أهميّة اكتشاف الأخلاق لا تكفي لذكر الحقيقة، بل علينا أيضاً استخلاص استنتاجات أخلاقية، وبالتالي يدعو موس إلى "الرجوع إلى القديم وإعادة اختراع القيم والإنفاق النبيل وإعادة اكتشاف العطاء وفرحته ومتعة الإنفاق السخي والضيافة والإجازة العامّة والخاصّة، فيدافع بذلك موس عن الأخلاق الجديدة القائمة على الاحترام المتبادل الذي من شأنه أن يتضمن إعادة توزيع الثروات المتراكمة وهذا هو ما يعتقد بحالة السعادة للأفراد والشعوب، حيث احترام مبادئ الشرف ونكران الذات والتضامن، فتعتمد على التأمين من قبل التدابير والتضامن في الشركات، وتقديم استثمارات تخدم الدولة." (بن موسي، 2016، ص: 67) وخلاصة القول إنّ تعريف مارسييل موس للهبة، ونظام البوتلاتش يعدّ أمراً منهجياً، يعتمده مارسييل موس في كتاباته.

خاتمة:

في دراسة مفهوم المقدس ووظيفته وبنّيته وكذلك أبعاده الأخلاقية، أبرزت المفهوم الموسي لفكرة المقدس حيث تبين لنا جلياً أنّ موس قد جعل للمقدّس عالمين هما العالم المقدّس والعالم المدنّس. بالانتقال إلى دور التضحية في المقدّس عند موس نجد أنّه جعلها آلية يتم من خلالها مرور البشر بين عالمين هما العالم المقدّس والعالم المدنّس والعكس



صحيح، والتي ينجر عنها تغيير مجموعة من العوامل منها عامل الزمان والمكان الذي يحمل معنى غير المعنى الزماني ومكاني العادي.

يتبين من خلال ما سبق أنّ المقدس متعدد الوظائف والمعنى ونجد أنّ أولها هي الصلاة التي كشف من خلالها أنّ لها دور في تنمية الشعور الجمعي كما أنّ للغة التي توظف في الصلاة لها بحد ذاتها أهمية قصوى في تلك العملية، أمّا الوظيفة الثانية فهي السحر والتي تبين من خلال دراستنا لها أنّ رغم فردانيّتها إلا أنّها اجتماعية في صميمها، كما نجد أنّ هناك اتصال وثيق بالعلم والمعرفة. لقد توصلّ موس بعد تحليلنا لأفكاره إلى أنّ المقدس كمفهوم لم يعد طهراني متعالي وإتّما عبارة عن وظيفة اجتماعية يمارسها المجتمع ويتجلى ذلك عندما وضّحنا انتقال موس من دراسة المجتمعات البدائية إلى المجتمعات الحديثة وأبعاد الدين فيها وإلى دور المانا على أنّه يحرك المجتمعات من خلال ظاهرة الاقتصاد لينتقل إلى الوقائع الاجتماعية بعد إلغائه للدين لبيّن موس جودة أفكاره عندما قام بنحت مصطلح جديد اسمه "الصخرة البشري" والتي قصد بها الأخلاق والتي دعا إلى العودة إليها من خلال الهبة. لكن ممّا لا شك فيه فإنّ مارسيل موس قدم دفعة فكرية للفلاسفة والمفكرين الذين جاؤوا من بعده والذين تمكنوا من توسعت أفكاره ونخص بالذكر أعمال كلود ليفي ستراوس والفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو كما لا ننسى أعمال المفكرين اللغويين أمثال جون لانجشو أستين John Lang Shaw Austin (1911 - 1960) وجون سيرل John Searle، وإميل بن فنيست Emil Benveniste (1902 - 1976) حيث كل واحد منهم قام بتطوير أفكار موس.

_ قائمة المراجع:

1- باللغة العربية:

- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن كرم. (1999). لسان العرب. لبنان: دار صادر.

- ادريس، سهيل. (2005). المنهل. لبنان: دار الأدب.

- الوكيل، يونس. (2016). الجماعة والسحر. مؤمنون بلا حدود. الرابط:

<https://bit.ly/3zINjPC>

- اندري، لالاند. (2000). موسوعة لالاند الفلسفية. لبنان: منشورات عويدات.

- أوتو، رودولف. (2010). فكرة القدسي. تر: خوام البوسي جورج. فرنسا: دار المعارف الحكيمية.

- بدوي، عبد الرحمن. (1963). مصادر وتيارات الفلسفة المعاصرة في فرنسا. مصر: مكتبة الانجلو مصرية.

- بن موسى، يوسف. (2016). أنثروبولوجيا الهدية. مؤمنون بلا حدود. الرابط:

<https://bit.ly/3zINjPC>

- حمداوي، جميل. (2017). سوسولوجيا الأديان. المغرب: إفريقيا الشرق.

- روجيه، كايوا. (2010). المقدس والانسان. تر: سميرة ريشا. لبنان: دار المنظمة العربية للترجمة.

- سالم الحاج، محمد. (2016). سوسولوجيا الصلاة. مؤمنون بلا حدود. الرابط:

<https://bit.ly/3zINjPC>



- غوشي، فرانسوا. (2015). **موس والدين**. تر: هدى كريملي. مؤمنون بلا حدود.
الرابط: <https://bit.ly/3zINjPC>
- كليمون، كاثرين باكيس. (1995). تر: محمد أسليم. **أبحاث في السحر**
<https://www.aslim.org/?p=2162>
- مصطفى، شاكرا. (1981). **القاموس الأنثروبولوجي عربي انجليزي**. الكويت:
جامعة الكويت.
- موس، مارسيل. (2020). **نقد أسطورة إبراهيم**. تر: جميلة شراد. مؤمنون بلا
حدود. الرابط: <https://bit.ly/3zINjPC>

2- باللغة الأجنبية:

- Caille, Alain. (2018). **Marcel Mauss et la paradigme du don** 1. 05 - 06 - 2021. <http://www.erudit.org>.
- Illustre le petit la rousse. (1995). **les dictionnaires la rousse**. France: Edition la rousse.
- ledent David. (2004). **présences de marcel Mauss**. France : sociologie Lhomme.
- Mauss, marcel et Huber, Henri. (1899). **essai sur la nature et la fonction du sacrifice**. 20. 06. 2021.
<http://www191.pair.com/sociojmt>.
- Mauss, marcel et Huber, Henri. (1903). **esquisse de une théorie générale de magie**. 10 -05 -2021
<http://www191.pair.com/sociojmt>.